

# الغربان

لا بد أنك، قارئ، تعرف القصة المستهلكة عن الغراب الذي قلد مشية الحمامة ففقد شخصيته ولم يصبح حمامة. تذكرتها عندما رأيته. كان يمشي بتؤدة على الرصيف المقابل.. تسمّرت لحظة إذ أدركت أنه غير ما توقعت، وتذكرت الحكاية التي طالما ظننتها رمزية لا صلة لها بالواقع، ولكن ها هو يمشي.. كالحمامة! لم ألاحظ هذا من قبل.

تعلم دائماً أن ثمة غربان بالمدينة من خلال نعيقها الذي تسمعه ولا تعلم مصدره، وربما تفترض ألا تراه، فالأرصفة والمباني وكل المدينة للحمام فقط.. لذا توجست برهةً عندما أدركت أن الطائر ليس بحمامة.. أستطيع الآن أن أزعم أن الجزء الأكبر من سبب اضطهاد البشر معنوياً للغراب قد يكون الحمامة!

ويبدو أن مشيته الشبيهة (قليلاً) بمشيتها هي التي أوحى بتلك الحكاية الصغيرة.. بدا بريئاً وهو يمشي في الشارع، فلماذا كرهه البشر وجعلوه موضوعاً لتشاؤمهم وبطلاً لحكايات الشر والغباء؟ أعترف أن صوت الغراب الشبيه بالصرخة البشرية جزء هامٌ من سبب تشاؤمنا ومن ثم اضطهادنا لهذا الطائر المسكين، ولكن الجزء الآخر هو الحمامة، التي جاورتنا في مدننا وأصبحت جزءاً منها بينما ظلّ الغراب بعيداً.. لذا فإننا عندما نراه بلونٍ وحجمٍ لم نألفهما لطائر نتوجس لأننا نقارنه دائماً بالحمامة وبقية الطيور اليومية..

والمقارنة تكون دائماً لصالح الحمامة، فأين الغراب النائي بنفسه عنا من الحمامة التي استأنسناها وتغنينا بهديها وسخرناها ساعيةً لبريدنا وجعلناها رمزاً لسلامنا وطعاماً على موائد بعضنا..

يبدو أننا نحب من نستأنسه أو.. نستهلكه، لا من يفضل بكبرياء أن يترك مسافة بينه وبيننا.. وقد نستعلّ خلقته، كالصوت مثلاً (في حالة الغراب) أو أسلوب حياته لنعزز افتراءاتنا عليه..

هلاً قبلنا اختلاف الغربان وخيارها في الابتعاد؟ ولا أعني هنا الحقيقية منها فقط، فعلى الرصيف المقابل ثمة غراب بشريّ أيضاً..

د. خليفة

نشر هذا المقال بالملحق الثقافي للشرق القطرية بتاريخ ٢٣/١١/٢٠١٤م